الفصل الثاني

مشكلة الطفل الضخمة

في آذار 2001، حين أطلق القاتل المراهق الأكثر شهرة في ذلك العام النار في مدرسة ثانوية قرب سان دييغو في أضخم عملية قتل عنيفة منذ الجرائم في كولمباين قبل عامين، اتبع الاندفاع العام لشروح سلوكه "السيناريو الثقافي" كما يدعوه علماء الاجتماع. تدخلت **نيويورك تايمز** على الفور بافتتاحية عنوانها "بنادق في أيد صغيرة"، حاثة الرئيس جورج بوش على عقد مؤتمر للبيت الأبيض حول عنف المراهقين. وبنحو متزامن، انطلق صحفيون من أجهزة الإعلام في أنحاء البلاد لإجراء مقابلات مع العدد الذي يقدرون عليه من معارف القاتل، والذين سيشهد معظمهم بجدية أن لا شيء يتعلق بالفتى بدا منحرفاً. وعلى نحو صحيح شكلياً، وقع قسم غير متناسب من "اللوم" من أجل أفعال القاتل الفتي ليس عليه تماماً

obeikandl.com

("مراهق شاب يعاني من مشكلة على ما يبدو"، كما ذكرت **واشنطن بوست** في افتتاحيتها) وإنما، بالأحرى على أنداده، أي زملائه الذين عذّبوه، والمعارف الذين لم يكترثوا بتهديداته بأنه "سيهدم المدرسة" واعتبروها تباهياً تافهاً، وعلى زملائه في الشرب في حفلة في نهاية الأسبوع السابقة الذين سمعوا القاتل يقول إنه يمتلك مسدساً يأخذه إلى المدرسة ولم يفعلوا شيئاً حيال الأمر.

في ما يظهر ثانية على أنه روتين ثقافي، غُطيت تماماً جميع تفاصيل القضية إعلامياً وحُللت مطولاً، وأصبحت **نيويورك تايمز** شعرية حول " عالم جون ديديون من المراهقين التاركين للدراسة والأشداء". ذُكرت جميع التفاصيل، باستثناء واحد. ونجحت **واشنطن بوست** في أن تنقل على مراحل ذلك التفصيل الوحيد، وبنحو عميق، في قصة حول أصدقاء المراهق الغامضين. "كان معروفاً باسم طفل المفتاح المزلاجي(*) الذي كان غالباً ما يتناول العشاء وينام في منزل الأصدقاء". شيئاً فشيئاً، وفي تقارير متنوعة وفي حفنة من أعمدة الرأي، ملأت قصص أخرى عن حياة القاتل العاطفية المنعدمة الفراغات. إنه ولد طلاق عمره عشر سنوات، استقر، بشكل حر، مع والده في كاليفورنيا. وكطفل تُرك بشكل كبير مع أدواته الخاصة، وكان ينام في أمكنة أخرى طول الوقت، ويدعو والدة أصدقائه "أمي". ولم يمض الصيف السابق مع أي من

(*) طفل يضطر أبواه إلى إبقائه في المنزل طوال فترة عملهما، ومن غير أيّما إشراف أو رعاية.

والديه ولكن، بدلاً من ذلك، في نوكسفيل وماريلاند، مع أسرة جيران سابقين. أما والدته المذهولة والمرعوبة من الحادث في سان دييغو، كما ستكون أية أم، فقد كانت تمنح مقابلاتها الأليمة بعد إطلاق النار من خلف باب مغلق حيث كانت هي نفسها تعيش، في الجانب الآخر من البلاد، في ساوث كارولاينا.

كان قاتل سان دييغو آخر شخصية مشهورة كهذه من الممكن إثبات أنه طفل نشأ وحيداً في المنزل. فالسرد المطوّل لقضايا الجرائم المثيرة مليء بشخصيات كهذه: النسخة المراهقة أو البالغة من أطفال متوحشين، مهجورين، وغير متحضرين. وكان العضو الجديد في الفئة هو المجرم آكل لحوم البشر المتوفى جيفري داهمر، الذي تطورتْ عاداته الشريرة كمراهق حين انفصل والداه؛ وقد تركه والده وأمه كي يعيش وحيداً في منزل الأسرة السابق لمدة عام قبل أن يتصالحا. أما تشارلز مانسون، أكثر المجرمين شهرة في السبعينيات فقد هجرته أمه مرة بعد أخرى، أحياناً حين سُجنت وأحياناً فقط لأنه كان في الطريق. أما ثيودود "تيد" بندي، أحد أسوأ السفاحين سمعة في الثمانينات فقد كان ربما النموذج الأغرب بين الجميع: لقد هجره والده ورباه جدّاه، لكن أمه كانت موجودة في المنزل طول الوقت، متظاهرة أنها شقيقته.[1]

وهكذا واصلت عناوين الصحف واحداً بعد آخر القصة. وفي مصادفة مدهشة لم يُعلق عليها آنذاك، كان للسفاح الآخر الأكثر ظهوراً في الأخبار في 2001 (بسبب محاكمته المتواصلة) خلفية

مماثلة لقاتل سان دييغو المراهق: طلاق بين الوالدين أثناء الطفولة، والذي بعده هجرت الأم ابنها وزوجها كي تتنقل عبر البلاد حين كان الفتى في الخامسة عشرة، تاركة خلفها مراهقاً يعمل والده في الليل ويمضى معظم وقته إما بدون رعاية وإما في منازل بشر آخرين. كان هذا تيموثي مكفي الذي أعدم في 2001 من أجل جرائم ارتُكبت في تفجير أوكلاهوما سيتي في 1995، والذي قضى فيه 168 شخصاً.

أيدت قضايا الجرائم الأكثر إثارة في سنة 2003 أيضاً ذلك الغياب الأبوي، وربما بشكل أكثر خصوصية غياب الأم، الذي هو عملياً شرط لمهنة القاتل. وكان القاتلان القناصان اللذان أرهبا منطقة واشنطن العاصمة في ذلك الخريف، جون محمد وجون لي مالفو، مثالي مقرر مدرسي عن هجر الوالدين. مالفو، الذي لم يعرف أباه أبداً، تركته أمه في معظم سنوات عمره الأولى كي ينشأ في جامايكا لدى أقرباء آخرين. وكان الشيء الأقل لفتاً للانتباه، ولكن الأكثر أهمية، هو أن ماضي جون محمد الأكبر سناً كان مماثلاً تقريباً: هجره والده وربته عمته وجدته. (أمه، الغائبة أيضاً، توفيت حين كان رضيعاً).

وما يخدم كنموذج للقاتل المراهق الحديث هو مأساة 1999 المعروفة باسم كولمباين. ورغم أنها وُصفت في البداية بأنها القضية التي "برهنت" أن العنف المدرسي يمكن أن يحدث لأي شخص، إلا أنها بينت أيضاً أنها تؤكد المبدأ القائل بأن هجر المراهقين هو

الشرط المسبق للوحشية الرهيبة. كان هذا هجراً أفضل، محمياً على الصعيد المادي، لكنه هجر على أية حال. فقد تُرك إريك هاريس وديلان كليبولد لوحدهما لكثير من ساعات يقظتهما. كانا طفلين أمضيا حياتهما في زوايا مظلمة من الإنترنت، حصلا على أسلحة حربية وخزناها في كاراجاتهما في الضواحي وغرف نومهما، هددا الجيران، عذبا الحيوانات، قرأا وكتبا بهوس عن الانتحار والجريمة، وأذاعا إشارات عن الأسطحة كانت تُعرف تقنياً باسم "إشارات تحذير". كانت هذه الإشارات واضحة وتهدف - ويظهر هذا على أنه شرط رئيسي - إلى أن يسمعها أصدقاء بالذهنية نفسها في الجوار كي ينتبهوا إليهما.

في كتابه الأخير، نوّه برايان سي. روبرتسون في تلخيص ذكي واضح للأدلة:

أكدت حيثيات قضية كولمباين الصلة بين العنف المدرسي وعدم انتباه الوالدين. فقد جاء ديلان كليبولد وإريك هاريس من منزلين غنيين نسبياً كان الوالدان في كل منهما يعملان. سُمح للمراهقين بالكثير من الاستقلالية... ورغم الكثير من إشارات التحذير، يبدو أن آل كليبولد وآل هاريس لم يخصصا سوى القليل من الانتباه لما كان يفعله ولداهما في الأشهر التي سبقت هجومهما الدموي. نبههما مدراء المدرسة باستمرار، والسلطات العامة وآباء آخرون إلى انغماس الولدين في أخيلة عنيفة، مليئة بالغضب وسلوك آخر تهديدي... وقد نجحا أيضاً في تركيب تسعين قنبلة دون أن ينتبه

والداهما وأن يخزناها في منزليهما. كانت غرفة نوم إريك هاريس بخاصة ترسانة حقيقية من الأسلحة المخبأة بشكل سيئ.[2]

باختصار، بغض النظر عن القول أن وجود مراهقين مجرمين سفاحين يمكن أن يحدث لأي شخص، بيّنت قضية كولمباين - بدلاً من أن تحطم - القاعدة القائلة بأن الوالدين الغائبين، نتيجة إهمال أو وضع مأساوي، يساعدان في تأسيس الأوضاع التي تزدهر فيها النوايا الإجرامية وتتواصل كي تؤدي إلى العنف.

يهدف هذا السرد إلى تأسيس فكرة مهمة لم يُنتبه إليها عادة في أعقاب انتشار جرائم القتل الأخيرة: أنه حين ننظر إلى الطرف الأقصى من الوحشية البشرية، قاتل العمد الحديث، فإن بقيتنا لا تدهشهم في الحقيقة رؤية علاقة بين هجر الوالدين والسلوك الوحشي. نفهم حدسياً أنه بينما لا يضمن وجود والدين منتبهين النجاح أو السعادة أو الشخصية الرزينة، فإن عدم امتلاكهما يمكن أن يتحول إلى كارثة. بالطبع، إن كثيراً من الأشخاص المحرومين من آبائهم وأمهاتهم، أو الذين هم بطريقة أخرى، ضحايا خصام متطرف يمكن أن يصبحوا جيدين.[3] من الذين لا يصبحون جيدين، تفهم بقيتنا في البداية أن الوالدين الغائبين أو المستغلين على الأرجح لهما علاقة بالأمر. كما عبر جوناثان كيلرمان عن هذا الفهم الجماعي في كتاب صدر في 1999 يفحص نماذج الأطفال الذين يقتلون بدم بارد: "إن الاستنتاج الأكثر عقلانية الذي يمكن

الوصول إليه بخصوص البيئة والاضطراب العقلي هو أن مزيجاً ما من المجهدات البيئية ـ الاستغلال الجسدي، الفوضى الاجتماعية، استخدام الوالدين للمخدرات وتناول الكحول، **والأسرة الفاسدة كلياً، وخاصة الآباء الفاسدين أو الغائبين** (التشديد من قبلنا)، يُسهم في سلوك عنيف مضاد للمجتمع لدى الفتيان".[4] من ناحية ثانية، من الصعب تخيّل أي شخص يدحض تلك المقولة؛ هناك ببساطة الكثير من الأدلة العلمية من جميع الأنواع لتأكيدها.[5]

بالتالي، نحن متفقون بعامة أن الحرمان الشديد يمكن أن يصنع الفساد الشديد. لماذا هذا الكلام الواضح مهم؟ إنه مهم لأنه يناقض شيئاً ما أنكره جيل من علماء الاجتماع والمناصرين المعيّنين بنحو وحشي وهو **احتمال صلة عرضية بين غياب الأبوين وسلوك الطفل غير المرغوب به. فسبب أن ذلك التناقض له معنى هو أنه يؤدي إلى هذه النتيجة الطبيعية المهمة: إذا بدا أن السلوك الضار في حده النهائي يعود إلى غياب أبوين متطرف يمكن أن يكون من المحتمل أن سلوكاً مؤذياً من نوع آخر هو أيضاً متأصل في غياب أبوين أقل تطرفاً لكنه مع ذلك مهم.**

يورد هذا الفصل أدلة لتصديق تلك النتيجة الطبيعية. فالسلوك الضار المعاصر بين الأطفال والمراهقين ـ من نسب الانتحار إلى ازدياد العنف في المدارس الابتدائية ـ يتزامن مع

اختفاء كثير من الراشدين من حياتهم. هناك ببساطة الكثير من الأدلة الموحية لإنكار الصلة.

هذا لا يعني القول أن جميع مؤشرات الوحشية التي يمكن أن يسميها المرء تتحرك في الطريق نفسها. فهناك أنباء طيبة حين يتعلق الأمر بإحصاءات معيّنة حول المراهقين. وبشكل أكثر وضوحاً، تراجعت جرائم الأحداث بشكل ملحوظ (مثل جرائم الراشدين) في الأعوام الأخيرة. هناك أيضاً انخفاض واضح في نسبة انتحار المراهقين. ويمكن القول أن أية جريمة مراهقين يتم تفاديها أمر جيد وإيجابي، وهناك بالفعل بعض التطورات في مشهد المراهقين تستحق التحية.

في الوقت نفسه، وكما يقول هذا الفصل، من الخطأ أخذ الأنباء المعيّنة تلك واستخدامها كوسائط ثقافية لحالة الأطفال والمراهقين الأميركيين كما استخدمها بعض المعلقين. فالعلامة الفارقة التي يجب أن تُضاف إلى الدفتر الأستاذ العام هو أن أخبار اليوم الجيدة تغفلُ الصلة بين الأطفال والوالدين، بينما أخبار اليوم السيئة لا تغفلها. وبحسب آراء الخبراء، إن التأثيرات التي تتحرك في الاتجاه الصحيح هي تتحرك في ذلك الطريق لأسباب مستقلة عن تأثير الوالدين، أما التأثيرات التي تتحرك في الاتجاه الخطأ فتبقى متصلة بالضبط بذلك. باختصار، لا تقتصر مشكلة الأطفال الضخمة على كولومباين أو تجار المخدرات، ولا تختفي إذا خف

إطلاق النار في المدارس الثانوية وهدأت عدوى المخدرات. لهذا السبب هي مشكلة حقيقية ومستمرة.

الجريمة والانتحار: نظرة أكثر دقة

أولاً، دعونا نمحّص الأنباء الطيبة. فالتراجع في الجرائم في العقد الماضي هو بالفعل أحد التغيرات الاجتماعية الأكثر إدهاشاً وأهمية في المشهد المحلي. فبين 1970 و1993 تضاعفت نسبة الجريمة بين المراهقين (15 مقابل 19) أو أكثر (7.7 إلى 20.5 لكل 100.000). وبين 1993 و2001 تراجعت بحدة، إلى 9.4 ـ لا تزال بشكل ملحوظ أعلى من مستوى 1970، ولكن بشكل درامي أدنى من الأوج في 1993.6 هذا ما يعنيه الناس حين يقولون إن الأنباء حول الجريمة جيدة. بمعنى نسبي، هذا صحيح.

وكما حذّر بعض الخبراء، تبدو الأمور نوعاً ما أقل درامية لو نُظر إليها في سياق تاريخي أكثر شمولاً. وقد قال جيمس كيو. ولسون خبير الأمة المتفوق في علم الجريمة، في 2000: "لن تبقى نسب الجرائم منخفضة إلى الأبد، ويعود السبب بشكل كبير إلى الصراع المتصاعد بين عصابات الشوارع. وأظن بأن جرائم خطيرة ستزداد في مدن أخرى لسبب بسيط: إنها دائماً تزداد وتقل، وليس هناك شيء في التاريخ يوحي بأن المستويات الحالية سوف تستمر. وبأية حال، **إن نسبة الجريمة العنيفة اليوم لا تزال أعلى بثلاث**

مـرات مما كـانت عليـه في 1960 (التـشـديد من عندنا).[7] وقـد شددت على النقطة الأخيرة لأنها تظهر لنا نوع الشيء الذي نفتقد إليه إذا نظرنا إلى تغير سنة أو سنتين في النسب فحسب. ويشير ولسون إلى مشكلة واحدة تتعلق بحماسة اليوم حيال تراجع نسب الجريمة: إذا ما قسنا جرائم الأحداث في أميركا بمعايير تاريخية ومعايير مجتمعات أخرى فإنها لا تزال مرتفعة بشكل غير معقول.

إن المشكلة الأعمق المتعلقة باستخدام نسب الجريمة كمؤشر على سعادة أطفال اليوم منطقية: إنها قفزة جدلية غير شرعية من "نسب الجرائم منخفضة" إلى "أن هذا يُظهر أن أطفال اليوم هم في حال رائعة". ويتوضح السبب في أن الفرضية الثانية لا تنبع من الأولى إذا توقفنا للحظة للإجابة على هذا السؤال الذي يميل المتفائلون إلى عدم التفكير به: لماذا تنخفض الجريمة بين الأحداث في المقام الأول؟

ليس هناك إجماع على الجواب. فكلٌّ من الليبراليين والمحافظين يشيدون بانخفاض الجرائم بين الأحداث، ومن المرجّح أن يواصلوا ذلك إلى النهاية. وحتى هكذا، توحي الشروح حتى الآن، وبقوة، بفكرة مختلفة. ويورد بعض المراقبين (وبشكل رئيسي المحافظون) قوانين أكثر صرامة ضد مرتكبي جرائم الأحداث، يقولون إنها ردعت مجرمين أقوياء آخرين وزادت من خفض نسبة جرائم الأحداث من خلال وضع الأطفال الأسوأ في السجن. ويشير آخرون (الليبراليون بشكل رئيسي) إلى الاتجاه نحو حظر الأسلحة

الفردية أثناء تلك الأعوام نفسها. ويعزي كثيرون في الجانبين دوراً في انخفاض الجريمة إلى الانخفاض في استخدام الكوكايين والعصابات المترافقة معه. أما سبب انخفاض الإدمان على الكوكايين فهو نقطة أخرى نوقشت كثيراً؛ يعزي البعض انخفاضه إلى ضبط أكثر قوة، وآخرون إلى فكرة أن جيلاً من الأطفال الذين تربوا مع رزايا المخدرات رفضوا أن يضعوا أنفسهم في طريق الأذى. بالإضافة إلى نظريات كتلك، تشدد أخرى على الاقتصاد المتنامي لأواخر التسعينيات، قائلة أنه حين يصبح الناس قادرين على شراء حذاء بسعر 150 دولاراً يصبحون أقل ميلاً إلى قتل شخص آخر للحصول عليه.[8]

ما هو مهم في هذه المراجعة الموجزة هو ما لم يُسلّم به في أي من هذه النظريات: تراجعت نسبة الجرائم لأن شيئاً ما عن حياة الأسرة كان يتحسن. هكذا، رغم أن الخبراء يمكن أن يختلفوا حول ما هو السبب الدقيق للانحدار في الجريمة، فهناك عامل مشترك مُضمر في هذه النظريات: شيء ما خارجي، أو من المرجّح أكثر أن عدداً من العوامل الخارجية، سبب هذا الانخفاض؛ وعلى أي حال، لا تخبرنا تلك العوامل الخارجية أي شيء عن الحالة العاطفية لمعظم الأبناء أو عن أسرهم.

وتماماً كما لا يبرهن الانحدار في نسبة الجريمة العنيفة على وجهة النظر التفاؤلية بأن الأطفال بالتالي هم في وضع جيد، فهو كذلك لا يبرهن الاتجاه الآخر التي تُشتق منه نتائج ضخمة بنحو

مفرط: الانحدار في نسبة الانتحار بين المراهقين. وفي سنة 1970 كانت النسبة 5.9 لكل 100.000[9] وبحلول 1994 ارتفعت إلى 11.1 لكل 100.000 ـ تقريباً الضعف. وفي سنة 2001 انحدرت بشكل ملحوظ إلى 9.4 لكل 100.000، وكانت لا تزال أكثر ارتفاعاً مما كانت عليه في سنة 1970.

كيف نصف الانحدار بين 1994 و2001؟ يقول بعض الخبراء إن الاستخدام الأكثر انتشاراً للحبوب المضادة للاكتئاب يمكن أن يفسر ذلك (رغم أن حجتهم تواجه المشكلة المفهومية بأن مضادات الاكتئاب نفسها قيل بشكل متزامن إنها تُسهم في انتحار المراهقين، كما نُوقش في الفصل 5). ويعتقد البعض أيضاً أن الوعي الأفضل ـ المزيد من الخطوط الساخنة لمناقشة الأزمة المحتدمة وتحديد أقل للمرض الذهني ـ يمكن أن يكون أيضاً مسؤولاً. يمكن أن يكون هذا صحيحاً، ولكن حتى هذا عامل مشترك، نقيض للعامل الأسروي. هكذا، مرة ثانية، وكما في مثال إحصاءات الجريمة، لا توحي الأنباء الجيدة عن انتحار المراهقين بأي تحسّن في سعادة ذهنية أو عاطفية تُعزى إلى الأسرة، ولكن بالأحرى هناك عوامل أخرى خارجية تؤثر في سلوك أولئك الذين يفكرون بالانتحار.

في غضون ذلك، تبقى النقطة الحاسمة الأكبر هي هذه: إذا نظرنا إلى الانحدار المباشر في النسب فحسب، فإننا نفقد النقطة التاريخية والأخلاقية الحقيقية لظاهرة انتحار المراهقين. كانت نسب الانتحار بين المراهقين أكثر ارتفاعاً بكثير في الولايات

المتحدة وفي البلدان الأخرى المتقدمة في القرن والنصف الماضيين مما كانت عليه من قبل.[10] ما يجعل هذا التطور المحزن محيّراً أكثر هو أنه ليس هناك تصاعد مترافق في الفقر في تلك الفترة ـ على النقيض من ذلك ـ وكان هناك القليل من الأدلة الخارجية الأخرى لشرح لماذا يقتل المراهقون الذين هم في وضع جيد مادياً أنفسهم في نسب كهذه تسبب الصدمة. هذا أحد الألغاز السوسيولوجية لزمننا، واحد حاول كثيرون ـ من عالم الاجتماع العظيم إيميل دوركهايم فصاعداً ـ أن يجيبوا عليه.

توحي بعض الأجوبة بصلة بين الانتحار وغياب الوالدين والأسرة.[11] ففي كتاب **يلعب الباولنغ وحيداً**، على سبيل المثال، يستخدم روبرت دي. بتنام أرقاماً من خدمة الصحة العامة الأميركية ومصادر أخرى كي يعبر عن الفكرة بلغة تاريخية آسرة، يقول: إن " الأميركيين المولودين والناشئين في السبعينيات والثمانينات كان من المرجّح أكثر من ثلاث إلى أربع مرات أن ينتحروا كما كان الناس في ذلك العمر يفعلون في منتصف القرن".[12] يقدم أيضاً فكرة مهمة: "العزلة الاجتماعية". ويستشهد بكتاب الجيل الطموح، وهو دراسة تمت في 1999 لسبعة آلاف مراهق قام بها عالما الاجتماع التربوي بربارا شنايدر وديفد ستفنسون.[13] يقولان إن المراهق الأميركي العادي يمضي حوالي ثلاث ساعات ونصف وحيداً يومياً، وربما من المفاجئ أكثر أن "المراهقين يمضون من الوقت وحدهم أكثر مما يمضونه مع الأسرة

والأصدقاء".[14] ليس المرء مطالباً بقراءة دوركهايم كي يرى العزلة مقحمة بشكل كبير في هذه الأرقام أو أن يتأمل تأثيرات عزلة مستوطنة في مزاج مراهق كئيب بشكل مزمن.

ما وصلت إليه عقود عديدة من البحث في هذا اللغز هو هذا: يظهر انتحار المراهقين أيضاً متصلاً بشكل عرضي مع غياب الأبوين بطرق أخرى متنوعة. وقد كتب إريك فومبون في **برتش جرنال أوف سايكياتري** (المجلة البريطانية للطب النفسي)، فاحصاً أكثر من ستة آلاف شخص يغطون واحداً وعشرين عاماً، أنه عثر على أدلة موحية بقوة حول الصلة بين "الازدياد في السلوك الانتحاري لدى المراهقين مع مرور الوقت والازياد المعاصر في سوء استخدام المواد".[15] ويرتبط سوء استخدام المواد، كما تشدد دراسات ذُكرت في صفحات أخرى من هذا الكتاب، في مكان آخر وبشكل متكرر، بغياب الوالدين. هكذا، اقترح سلسلة عرضية يلتقط فيها المراهقون الوحيدون في المنزل عادات الكحول والمخدرات التي، بدورها، تُسهّل عليهم تخيّل فعل سلوك ضار، بما فيه الانتحار.

يُربط الانتحار كذلك عرضياً بالطلاق بين الأبوين. أقول "بالطبع" لأن هناك جبلاً صغيراً من الأدلة يربط الطلاق ليس بنسب عالية من سوء استخدام المواد لدى الأطفال والمراهقين فحسب وإنما أيضاً بعدد كبير من العوامل المرتبطة بالانتحار: الاكتئاب، ومشكلات نفسية أخرى، مشكلات سلوكية، إنجازات

أكاديمية متدنية، واحترام للذات متدن.[16] وبحسب ديفد لستر، أحد علماء الانتحار البارزين في البلاد، والذي فحص بدقة معطيات متعددة لها صلة بالانتحار بين المراهقين، "كانت نسب الطلاق فحسب مرتبطة بشكل مستمر بنسب الجريمة والانتحار".[17] وليس علم الاجتماع هو الطريقة الوحيدة لتوضيح تلك الصلة. فالفصل الذي يتحدث عن موسيقى المراهقين فيما بعد في هذا الكتاب يورد دليلاً غنائياً يوحي أنه عندما يفكر المراهقون بالانتحار - أو على الأقل حين يفعل ذلك شعراؤهم المشهورون - فإنهم يعقدون بشكل مشترك الصلة العرضية التي يحددها لستر، تلك التي تربط بين الانتحار وأفكار الانتحار والمنازل المحطمة، وخاصة الوالدين الغائبين.

باختصار، لا يبرهن الانخفاض في جرائم الأحداث والتراجع في نسبة الانتحار على ما يريد أن يبرهنه المناصرون الذين يستخدمونه في خدمة "تنوع" الأسرة. فقد تراجعت نسبة الجريمة لأسباب منفصلة تماماً عن حالة الأسرة، ونسبة الانتحار، التي لا تزال بشكل مُدهش مرتفعة بين المراهقين، تُربط بنحو متكرر بغياب الأبوين بأشكال مختلفة. فهذه التغيرات الأخيرة المرحب بها، كما هي وبذاتها، في القوى المؤثرة في الجريمة والانتحار، لا تسمح لنا بالاستنتاج أن الأطفال هم كلهم على صواب. يجب أن نفكر، على أي حال، بما لا يناقشه دعاة التفاؤل حين يستحضرون نسب

الجرائم والانتحار المتراجعة لأسباب إيديولوجية، أي، الأنباء السيئة عن أطفال اليوم الغاضبين.

أطفال المدارس المتوحشون

تنطوي القراءة الإيديولوجية المغلوطة لما يجري فعلياً في إحصاءات الجريمة والانتحار على معنى ضمني آخر غير مرغوب به: تخدم في حرف الانتباه عن شيء هو جديد ومزعج في المشهد، والذي هو الارتفاع الملحوظ في السلوك الضار بين بعض الأطفال الأصغر.

ففي 2003، هذا إذا بدأنا بمثال آسر، تحدثت مجلة **تايم** عن مسح لتسعة وثلاثين مركزاً للرعاية النهارية بالأطفال، ومدرسة ابتدائية وأطباء أطفال في منطقة فورت ورث، تكساس. وبحسب المجموعة التي قامت بالمسح، قالت 93٪ من المدارس التي استجابت إن في رياض أطفال اليوم "المزيد من المشكلات العاطفية والسلوكية أكثر مما كان منذ خمس سنوات". فضلاً عن ذلك، قال أكثر من نصف مراكز رعاية الأطفال إن "حوادث العنف والغضب" قد ازدادت في السنوات الثلاث الأخيرة. ويقتبس صحفي **التايم** كلام قائد المسح الذي قال: "نحن نتحدث عن أطفال ـ في سن الثالثة ـ يتناولون شوكة ويطعنون طفلاً آخر في الجبين. نحن نتحدث

عن طيف واسع من أنواع السلوك المتفشية، وهذه مشكلة متنامية".[18]

وهناك مصادر عديدة اقتُبست في مكان آخر من مقال التايم، وهي " مصادر" تهم الأساتذة، والمدراء، ومهنيين آخرين الذين هم بالفعل موجودون حول الأطفال الصغار طول النهار، على عكس الكثير من الآباء والأمهات، كما يؤكد المقال. وينوه مدير لمركز أمان المدرسة القومية في كاليفورنيا، الذي يتابع العنف في مدارس البلاد، أن العنف في أنحاء البلاد "يقل شيئاً فشيئاً" وأن عدداً متنامياً من المقاطعات قام مؤخراً بإنشاء مدارس ابتدائية خاصة للصغار العنيفين. ("من الذي كان يفكر قبل سنوات أن هذا سوف يحدث؟" يتساءل بصوت مرتفع). ويضيف مدير خدمات نفسية منخرط مع ثمانين ألف طالب في منطقة فورت ورث: "لقد حصلت الحوادث ليس في مناطق المدارس المدينية ذات الدخل المنخفض فحسب وإنما في مناطق الطبقة المتوسطة كذلك... نحن نتحدث عن الرد الخطير على المدرسين، والتجديف، وحتى عض، ورفس، وضرب البالغين، ونحن نرى هذا في الذين أعمارهم خمس سنوات، فضلاً عن ذلك، ليس الذين في الخامسة هم من دُعوا رسمياً بـ"مستائين عاطفياً" وإنما "الأسوياء".

كُرِّر عدد من النقاط التي طُرحت في مقال **التايم** في مقال نُشر في 2003 في جريدة **يو إس إي توداي**، والذي يورد بشكل

مشابه كلام مربين وآخرين من أجزاء مختلفة من البلاد.[19] وهم يعبرون عن الهاجس نفسه بأن شيئاً ما غريباً جداً يجري بين بعض الأطفال الصغار، على الأقل. ويقول منسق أمن مدرسي في إنديانا، على سبيل المثال: "يتفشى الرفس والعض والخدش والضرب" في المدارس الابتدائية، مضيفاً: "لو سألني أحد ما عن هذا منذ عشرة أعوام: "تشيك، كم من طلاب المدارس الابتدائية الذين استجبت إليهم؟ كنت سأقول: "لا أحد". أما الآن فإن هذا يحدث باستمرار". وقال رئيس للشرطة في مقاطعة بالم بيتش، في فلوريدا: إن ضباط الشرطة دخلوا المدارس الابتدائية للمرة الأولى في السنوات القليلة الماضية، جزئياً للتعامل مع آباء وأمهات صاخبين " أصبحوا غاضبين حين تم إخضاع أولادهم للعقاب". ويقول مقال صحيفة يو إس إي توداي إنه رغم أن جرائم الأحداث قد انخفضت بالفعل في المجمل، فإن الإحصاءات القليلة التي لدينا توحي أن النقيض يجري بين الأطفال الصغار. ففي كاليفورنيا، على سبيل المثال، "تضاعفت الجرائم ضد الأشخاص" في المدارس الابتدائية، أي الاعتداءات، تقريباً بين 1995 و2001، ووصل الأمر إلى أن تخريب الممتلكات العامة وجرائم أخرى تتعلق بالملكية انخفضت بشكل ملحوظ.

ثم هناك شهادة من الأساتذة أنفسهم. فكّروا بمقال حديث لجوشوا كابلوفيتز نُشر في صحيفة **سيتي جرنال**، يقول فيه إن تجربته الخاصة كمدرس للصف الخامس في مدرسة عامة في واشنطن، العاصمة، في التعامل مع أطفال خارج السيطرة (وأحياناً

أبوين) "لم تكن أمراً نادراً". ويتحدث أساتذة آخرون "عن مشكلات ضبط السلوك العنيفة نفسها التي حولتهم من مربين إلى قوات حفظ سلام". أما قصته الشخصية فمدهشة، إذ أنه طُرد أخيراً من النظام وحوكم كي يدفع تعويض 20 مليون دولار من قِبل والدي طفل عنيف (وعلى ما يبدو، تزداد شعبية مقاضاة مدارس المقاطعات). يختتم كابلوفيتز:

علمت أن وباء عنف يتفشّى في مدارس الأمة العامة الابتدائية، وليس في واشنطن العاصمة فحسب. يتحدث مقال حديث منشور في فيلادلفيا إنكوايرر بالتفصيل عن نموذج مألوف: رياض الأطفال تضرب مدرسات حبالى، طلاب صف ثالث يضربون أساتذتهم بالمساطر. وأبلغت بنسلفانيا ونيوجرزي عن 30٪ تقريباً من الازدياد في العنف المدرسي منذ 1999، وأسست كثير من مدارس المقاطعات مدارس كي 6 تنظيمية خاصة. وفي نيويورك سيتي، وبحسب نيويورك بوست، تظاهر حوالي 90 مدرساً مؤخراً ضد أذى الطلاب الخارج عن السيطرة، صائحين: "افصلوا الطلاب العنيفين". فالأطفال الذين يطعنون بعضهم بعضاً، ويستخدمون المدرسين كدروع في المشاجرات، والذين يخبطون على الباب لإزعاج الصفوف، ويهددون "بطرد ذلك الطفل" بأقدامهم من بطن مدرّسة حامل خلقوا "مناخاً من الإرهاب".[20]

ما الذي يجري في هذه الصفوف التي يقل فيها الأطفال العاديون ويتكاثر المتوحشون؟ ومن الممتع أن المصادر المذكورة في

هذه التقارير المتنوعة ليست متضاربة إطلاقاً حول الموضوع. تعتقد أنها تعرف. وكما في الفصل القادم حول المدارس الداخلية الخاصة، فإن أولئك القريبين من المصدر في هذه المؤسسات يتشاطرون الإحساس نفسه: ما يتحمل المسؤولية حيال أولئك الأطفال المؤذين هو "المنازل المتوترة، التي فيها أب واحد" والتي يأتي كثير منهم منها (هذا من رئيس جلسات الاستماع التنظيمية في لانكستر، بنسلفانيا) وبكلمات ملخص **التايم**: "المزيد من الآباء والأمهات الذين يعملون ساعات أطول أكثر من قبل"، "الأطفال يمضون المزيد من الوقت في الرعاية النهارية"، و"الجميع يأتون إلى المنزل مرهقين بحيث لا يستطيعون الانخراط في علاقات تبني مهارات اجتماعية".[21] ما يخلق أولئك الأطفال العنيفين هو عالم غير متوازن، "لا يحصل فيه الأطفال على ما يكفي من الوقت بين الذراعين"، كما قال مدير مدرسة ابتدائية في ميامي.

تورد مصادر أخرى نقطة أخرى صائبة: ليس بعض أولئك الأطفال أكثر تعباً وحرماناً مما ينبغي أن يكونوا عليه فحسب، وإنما كذلك لم يتعلموا الحد الأدنى من اتباع القواعد المطلوبة لإمضاء يوم مدرسي لأنه لم يعلمهم أحد الأمور الصغيرة التي كانت عادة مهارات مشتركة للأطفال في مكان آخر. فقد قال مدير الخدمات النفسية في مدارس فورت ورث لمحطة **سي بي إس نيوز**: "حين أتحدث مع الآباء والأمهات غالباً ما أجد سيناريوهات مثل: في الحقيقة لا أملك وقتاً كي أجلس إلى الطاولة مع طفلي؛ الطعام

هناك، ويستطيع أن يأكل ما يشاء. وهكذا ليس هناك تفاعل يقدم النظام للطفل".[22] إن رأيه صحيح تماماً. كيف من المفترض أن يتعلم أي طفل أن يجلس هادئاً وينتبه إلى ما يقوله مدرّسه حين لا يكون مطلوباً منه أن يمضي خمس دقائق في الليل إلى الطاولة يفعل هذا تماماً مع أمه أو والده أو أعضاء أسرة آخرين؟

العمل إزاء الوظيفة

يوحي تفشّي السلوك السيئ في المدرسة بصلة أخرى بين أطفال المدرسة العنيفين وشبكة ضعيفة جداً من الآباء الداعمين، وهي واحدة لا تظهر في الأدبيات ولكنها تتطلب التفكير. ربما بعض أولئك الأطفال عنيفون ويسيئون التصرف في المدرسة لأنهم محبطون من كونهم غير قادرين على القيام بالعمل المدرسي. وربما كان أحد أسباب عجزهم هو أنه ليس هناك أحد كي يساعدهم على ذلك في المنزل.

هذا جواب واحد ممكن على سؤال لماذا التعليم المدرسي الأميركي الابتدائي يبقى راكداً رغم التجريب التربوي المتواصل. وكما عبّر عنوان عريض أخير معبّر في نيويورك تايمز: "الطلاب في الولايات المتحدة لا يصمدون في الاختبارات العالمية". في هذه الدراسة الخاصة، كما في دراسات أخرى عديدة مع مرور الأعوام، أظهر حوالي تسعة آلاف من طلاب الصف الثامن المختبرين مرة

ثانية ما شكا النقاد منه طويلاً: يتراجع الطلاب الأميركيون خلف أندادهم في البلدان المتقدمة بهوامش مهمة، والفجوة في العلم والرياضيات تتسع مثل أعمار الطلاب. ومع مرور الأعوام قُدمتْ كثير من الشروح المختلفة ـ الديموغرافية، السوسيولوجية، والتربوية، والاقتصادية ـ لتفسير هذه الفجوة، واستُنبطت كثير من الإصلاحات من المدارس الخاصة إلى الكفلاء، وغير ذلك لمعالجة الأمر.

مع ذلك إن الشرح الوحيد الممكن الذي لم يحظ بانتشار واسع هو الأكثر وضوحاً بين الكل: وهو أن كثيراً من الأطفال يحتاجون إلى المساعدة والإشراف في وظائفهم، وأنه في كثير من المنازل لا أحد هناك كي يقدم هذا النوع من الدعم بعد المدرسة، وأن بعض الأطفال مستعدون جسدياً للنوم، وليس للدراسة، في الوقت الذي يعود فيه آباؤهم وأمهاتهم من العمل، وأن البالغين المنشغلين الذين يجدون أنفسهم يشرفون على الوظيفة بعد يوم طويل ومليء بالعمل يمكن أن يكرهوا كل دقيقة من الأمر (وبشكل قابل للفهم). كل هذه حقائق مرتبطة بوضوح بالإنجاز المدرسي بحيث أن المربين أنفسهم بدؤوا يقرّون بالروابط، لو فقط لأنهم هم الذين يلامون بنحو متكرر على النتائج.

على سبيل المثال، نشرت **نيويورك تايمز**، منذ مدة مقالاً قصيراً مهماً لرتشارد روزشتاين وضع له عنواناً معبّراً هو "أضف تغيرات اجتماعية إلى العوامل التي تؤثر في علامات اختبار

متناقصة".[23] يتنبأ فيه مدير قسم أيوا للتربية تيد ستيلويل " أنه حتى التغير الاجتماعي الأكبر يمكن أن يكون عاملاً... مع تزايد غياب الوالدين، يمكن أن يحصل الأطفال على دعم أقل في المنزل من أجل التعلم ". ذكر التقرير نفسه أيضاً مشكلة يعرفها جميع المدرسين، وهي العدد المتناقص للآباء والأمهات المتوفرين للمناسبات المدرسية، من الرحلات الميدانية إلى حفلات الصف إلى العمل الطوعي إلى تطورات مفاجئة تتطلب انتباه الوالدين. ونوهت مدرسة تمتلك ثمانية عشر عاماً من التجربة في أيوا أنه "هذا العام، في صفها المؤلف من 23 طالباً، هناك ثلاث أمهات فحسب تستطيع أن تتصل بهن إلى المنزل إذا حدثت مشكلة في المدرسة".

هذه النقطة نفسها ـ أن كثيراً من الآباء والأمهات اليوم غير متوفرين للمدرسة وللأنشطة المدرسية بالقدر الذي يقتضيه النجاح التربوي ـ تفرض نفسها بشكل أكثر قوة إذا وُضعت بعض الحقائق النسبية في الحسبان. وقد فُعل الكثير، على سبيل المثال، في تفوق الطلاب الآسيويين المفرط في الروائز المقيّسة ومساع أكاديمية أخرى، وكُتب الكثير عن العوامل الثقافية والاقتصادية، وحتى (انتبه إلى المنحني الذي على شكل جرس)[*] التكهنية النفسية، التي قيل إنها تفسر هذا الاختلاف. ولكن لم يُجهر إلا بالقليل حول

(*) منحن يشبه منحني التوزع السوي، فيكون متماثل الأطراف ذا منوال واحد وعلى شاكلة جرس.

عامل لا يتطلب نظرية من أي نوع، والذي، كما نوّه فرانسيس فوكوياما، وكما يعرف القراء الذي يعرفون كوريا واليابان، "يرد سبب تفوق الطلاب من المجتمعين في الاختبارات الدولية إلى الاستثمارات التي تقوم بها أمهاتهم في تعليمهم".[24] (والاستثمار لا يعني النقود، بالمناسبة، بل الوقت). حتى بالنسبة للأمهات الأكثر تعلماً وكمالاً، البقاء في المنزل حين يكون الأطفال في سن المدرسة ومساعدتهم في الدراسة والبحث المنظم هو القاعدة.[25]

ظهر مقال آخر يورد دليلاً موحياً يربط بين غياب الوالدين ونتائج المدرسة في كتاب الفجوة المتسعة، وهو بحث صدر مؤخراً حول حياة الأسرة المعاصرة ذُكر في الفصل السابق الخاص بالرعاية النهارية. وتستنتج الباحثة جودي هيمان، التي لاحظت دلائل متنوعة تربط الأداء السيئ في الروائز المقيّسة مع ساعات عمل الوالدين: "ليس توفر الوالدين للمساعدة في المساء أيضاً هو الذي قاد إلى مشاكل أكبر لدى الأطفال في المقام الأول". ثم تعالج صلة غياب الوالدين مباشرة: "هل يمكن شرح العلاقة بين ظروف عمل الوالدين والأداء السيئ للأطفال في المدرسة بعوامل أخرى؟ حتى حين تُستخدم المناهج الإحصائية لفحص الفروق في دخل الأسرة وفي تعليم الوالدين، والوضع الزوجي، والساعات الكلية التي عمل بها، **كلما زادت ساعات غياب الوالدين عن المنزل بعد المدرسة ومساء من المرجح أن يُختبر أبناؤهم في الربعيل الأدنى لاختبارات الانجاز** (التشديد من عندنا).[26]

بالتأكيد، ينتهي بعض أولئك الأطفال إلى كراهية المدرسة لأسباب لا تتعلق بالقدرة ولكن بسبب هذه الحقيقة: افتقارهم إلى دعم الوالدين يجعلهم متخلفين أكثر عن الأطفال الذين يتمتعون بانتباه راشد أو عضو أسرة آخر أكبر سناً في المنزل، وهم هكذا يزيدون مرة ثانية المسافة الأكاديمية التي يجب عليهم اجتيازها. من الذي لن يكتشف أن هذا الضرر مهيمن ومن المحتمل أنه يحث على السلوك الغاضب؟

إلى أية درجة دنيا يمكن أن نذهب؟

إذا تحدثنا بلغة الإحصاء، بالطبع، تنمو قلة من أطفال المفتاح المزلاجي كي يصبحوا مجرمين. مع ذلك، خلف القلق العام الذي يثيره كل متوحش كهذا، وخلف دورة الإعلام الطقسية التي تلاحق الأعمال الوحشية المسجلة للتلفزيون، تكمن حقيقة غير معبر عنها حول الصلة بين هؤلاء المراهقين المنبوذين وبقية المجتمع. فالخوف الذي يتشاطره كثير من البالغين هو ربما أن الأطفال ليسوا على ما يُرام في النهاية، وربما فلتت من عقالها التجربة التي استمرت عقوداً في ترك المزيد منهم يعولون أنفسهم بأنفسهم، سواء من أجل التحسن المادي، والتحقق المهني، والرضا الزوجي، أو رغبات بالغين أخرى عميقة. ما يقلق الذهن العام حيال القتلة ليس أنهم يبدون غير أسوياء، وإنما أنهم يمكن أن يكونوا رمزاً لأمر ما.

لهذا السبب، في النهاية، لا تقف النسب المتناقصة للجريمة والانتحار كوسيط لتحديد أن الأطفال هم على ما يرام. فالتفاؤل المشتق منها خاطئ للسبب نفسه الذي جعل الهتاف من أجل الرعاية النهارية خاطئاً: إنه يجعل الحاجز الأخلاقي للمدارس والأطفال متدنياً جداً. ومن الجيّد، بالطبع، أن عدد تجار المخدرات من المراهقين الذين يطلقون النار على بعضهم بعضاً ببنادق العوزي قد قلّ. ولكن منذ متى نقول، بالنتيجة: "طالما أنك لست تاجر مخدرات فإن كل شيء سيكون رائعاً"؟ من المشجّع أن عدد المراهقين الذين انتحروا في 2001 كان أقل مما كان عليه الأمر في 1994، ولكن منذ متى يجعل هذا الأمر الأشخاص الذين انتحروا (بنسب عالية جداً تاريخياً) نوعاً ما أقل من مشكلة؟

الجواب هو: أننا قررنا جماعياً تجنب مشكلة الأطفال العنيفة بشكل كبير - أي الازدياد في السلوك السيئ وغير المسيطر عليه أحياناً في كثير من المدارس وبين كثير من الأطفال الأميركيين، من خلال التشديد على التنويعات الأكثر مشهدية ومأساوية للموضوع فحسب. في النهاية تُختزل تلك المشكلة هكذا: حين تكون كولمباين معياركم الأخلاقي، هناك الكثير الذي لن تقيسوه.